إسهام العائلة المشرفية في الكتابة التاريخية

د. بلبروات بن عتو*

تمهيد: أنجبت العائلة المشرفية عددا من العلماء الأعلام، منهم من عاصر الزيانيين، ومنهم من عايش الأتراك العثمانيين بالجزائر خلال عصر الدايات، ومنهم من شهد الاحتلال الفرنسي وتفاعل مع ثورة الأمير عبد القادر، مما اضطر هؤلاء إلى الهجرة نحو فاس، عاصمة الدولة العلوية بالمغرب الأقصى.

هؤلاء العلماء المشرفيون سواء الذين سكنوا الجزائر أو المغرب، اهتموا بعلوم شتى منها الأدب والنحو والاجتماع والطب والدين والتاريخ...وتركوا لنا مخطوطات عديدة موزعة بين الجزائر والمغرب الأقصى وبلدان أخرى، وفي ظل هذا الزخم التراثي للعائلة المشرفية الجزائرية، هناك مخطوطات ذات قيمة علمية هامة ونادرة في الوقت نفسه، تتعلق بالتاريخ العام وتاريخ الجزائر والمملكة المغربية، نحاول التعريف بها قصد الوقوف على مدى مساهمة العلماء المشرفيون في الكتابة التاريخية.

أولا–التعريف بالعائلة المشرفية:

نسب العائلة المشرفية: تنسب العائلة المشرفية إلى قبيلة المشارف، وتتفرع هذه القبيلة إلى أربعة أفخاذ هي: أولاد سيدي أحمد بوجلال، وأولاد سيدي علي، وأولاد سيدي عب، وأولاد سيدي منصور. وكلهم ينحدرون من جدهم الأدنى "مشرف". وقد حظيت العائلة المشرفية بشهرة وسمعة طية في غرب الجزائر ولعل ما ساقها إلى هذه الشهرة هو حسبها ونسبها واضطلاعها بأدوار تاريخية في الجزائر والمملكة المغربية خلال فترات متلاحقة من القرنين 18 و19م بل ويمتد إلى القرن 20م.

وتجمع المصادر على النسب الشريف لهذه العائلة بل والقبيلة بأفخاذها الأربعة، وتؤكد على أنها إدريسية النسب من الفرع الحسني، وأنها حصلت من طرف نقابة أشراف الجزائر خلال العهد العثماني[1] ثم العلويين بفاس على عقود نسب، تعترف وتثبت صحة نسبها الشريف. وفي هذا الصدد كتب إدريس الفضيلي، في درره البهية، ما يلي: "وبأيدي هؤلاء المشرفيين رسوم عديدة وفتاوي مفيدة اشتملت على

* – أستاذ محاضر أ في التاريخ الحديث–قسم التاريخ– جامعة سيدي بلعباس.

عشرين عضدتها ظهائر ملوك الترك المستولين على النواحي وقتئذ. وظهائر الشرفاء أمير المؤمنين عبد الرحمان بن هشام وابنه سيدي محمد وحفيده الحسن إلى غير ذلك."[2]

ويرد الكتاب جميع المشرفيين إلى جدهم سيدي علي بن المشرف، وهذا الأخير ينحدر من ذرية عيسى بن إدريس الثاني. وبالتالي يؤكد نسب المشرفيين على أصلهم العربي المشرقي إلا أن وجودهم قد ارتبط بمنطقة غريس بأحواز مدينة معسكر التي كانت عاصمة لبايليك الغرب الجزائري خلال فترة معينة من القرن 18م. وتشير بعض المصادر إلى أن سلفهم مشرف بن عبد الرحمان بن مسعود قدم من قرية بوسمغون[3] الواقعة في الجنوب الغربي للجزائر إلى غريس حيث تم تعيينه قاضيا من طرف أحد ملوك بني زيان، وفي رواية أخرى أن يوسف بن عيسى الذي يتصل بنسب مشرف بن عبد الرحمان هو الذي قدم من بوسمغون إلى غريس وعين قاضيا بها[4].

وعليه تتضح لنا جليا أن العائلة المشرفية استوطنت بلاد الجزائر سواء كان ذلك في بوسمغون أو غريس، ثم هاجرت إلى المملكة المغربية تحت قهر الاحتلال الفرنسي مثلها مثل العديد من العائلات الجزائرية المهاجرة.

ب–علماء العائلة المشرفية:

1–ابن مشرف محمد: هو الجد الأدنى الذي تنتسب إليه قبيلة المشارف، كان مقيما في القرن 10هـ/ 16م، ببوسمغون، وكان متصلا بالعديد من العلماء والمرابطين في الجزائر والمغرب الأقصى، مثل الفقيه أبي القاسم بن عبد الجبار الفجيجي، والشيخ محمد بن علي أبهلول، والفقيه عاشور التلمساني، ومحمد بن عمرو وغيرهم، وكان قد درس في سجلماسة وتلمسان وفجيج والوطن الراشدي.

ومن أبرز تلامذته سيدي سعيد قدورة، ونعت بالإمام الفقيه الهمام، واشتغل ابن مشرف محمد بالتدريس وبث العلم كما تولى القضاء لبعض أمراء بني زيان.

2–الشيخ يوسف بن عيسى المشرفي: هو الجد الأوسط للعائلة المشرفية، أسس زاوية بالكرط وحملت اسم موضعها، وكان الشيخ معروفا بالعلم والصلاح والتأليف، وذكر الحاج محمد المشرفي (المعاصر لأبي حامد المشرفي)في كتابه السهام الصائبة، أن ذريته عرفت بالتقوى والصلاح والعلم والعدالة.

3–الشيخ عبد القادر بن عبد الله المشرفي: (ت: 1778م) ولد ونشأ في قرية الكرط بأحواز معسكر، وبها أخذ العلم عن علماء عصره فأصبح يدعى بشيخ الجماعة وإمام الراشدية، ولما أسس الشيخ مصطفى بن المختار الراشدي، جد الأمير عبد القادر، معهده بالقيطنة، اختاره للتدريس.[5] وبعد ذلك، أسس زاوية

ومعهدا علميا في مسقط رأسه بالكرط، وذكر العربي المشرفي (أبو حامد) أن زاويته كانت لا تخلو من مائتي طالب يأخذون عنه العلم ويطعمهم من ماله زيادة على الوفود والضيوف التي تزوره.[6]

على أية حال يظهر أن الشيخ عبد القادر المشرفي قد تخرج على يديه العديد من الشخصيات المشهورة بالمنطقة مثل الباي محمد الكبير الذي تولى بايليك الغرب سنة 1779 أو 1780، والعلماء المعسكريون الذين قربهم إلى مجلسه وفي مقدمتهم الشيخ أبو راس الناصري الذي كتب في رحلته أنه تلقى العلوم على عدة شيوخ لكن يبقى المشرفي هو عمدتهم، والمقطع الآتي يوضح ما نرمي إليه: "فأول رحلتي للجزائر (العاصمة)...فلقيت بها الفقيه المسمى الشيخ القاضي المفتي السيد محمد بن جعدون، فقال لي: من هو شيخك؟ قلت: المشرفي ..."[7]

وإذا اشتهر عبد القادر المشرفي بجهوده في مجال التأليف والتربية والتعليم، فإنه كذلك برز في مجاهدة المحتلين الاسبان لوهران والمرسى الكبير، واشتراكه في الفتح الأول للثغرين الذي وقعه كل من حسن أوزن من جهة البحر والباي مصطفى بوشلاغم من جهة البر سنة 1708م، وما كتابه بهجة الناظر الآتي ذكره لاحقا إلا بيانا يثبت حرص الشيخ عبد القادر المشرفي على التزامه بالجهاد وتصفية ثغري وهران والمرسى الكبير من الاحتلال الاسباني. وفي يوم الخميس 10 رمضان 1192هـ/1778 م توفي الشيخ المشرفي بمسقط رأسه "الكرط" بمعسكر.

4–الشيخ محمد الطاهر بن عبد القادر المشرفي: (ت: بعد 1792م) يدعى بسيد الشيخ، ولد بقرية الكرط قرب مدينة معسكر، فأخذ العلم عن جماعة من علمائها الأجلاء، من بينهم والده الشيخ عبد القادر المشرفي وكذا العلامة الحافظ أبو راس الناصري. ثم واصل تعليمه بمدينة فاس وتمت إجازته من طرف الشيخ عبد القادر بن شقرون والشيخ الطيب بن كيران.

اقتفى الشيخ الطاهر المشرفي خطى والده فاهتم بتدريس العلوم الشرعية بقرية الكرط، ثم استدعي من طرف باي الغرب الجزائري– محمد بن عثمان الملقب بالكبير– إلى تولي القضاء بوهران– عاصمة البايليك الغربي بعد تحريرها من الاحتلال الاسباني سنة 1792– إلى أن وافته المنية.

وللشيخ محمد الطاهر المشرفي مؤلفات منها:

– إبراز المعاني في غوامض ألفاظ التفتزاني. وهو شرح على خطبة سعد الدين.

– الدرة الشريفة في أصول الطريقة. وهو شرح على منظومة والده عبد القادر المشرفي في التصوف.[8]

5– الشيخ محمد بن عبد الله المشرفي المعروف بـ "سقط": (ت: بعد 1853م.)

سمي كذلك عبد القادر زين العابدين، لكن اسم الحقيقي هو بن عبد الله، وقد عرف بسقط أو سقاط، لسقوطه من أعلى فرسه وجرحه في إحدى رجليه. وهو حفيد الشيخ عبد القادر المشرفي، ولد بغريس وأخذ العلم عن أشهر علماء المنطقة الراشدية في وقته، وفي طليعتهم الشيخ الحافظ أبو راس الناصري، والشيخ محمد الطاهر المشرفي.

ارتحل مرارا إلى المشرق حاجا أو معتمرا فلقي هناك نخبة من العلماء، أخذوا عنه وأخذ عنهم فأجازوه. ويتميز بإلمامه بعلوم عدة منها الفقه والنحو والبيان وعلم الأصول وعلم المنطق والعروض والتاريخ كما كان شاعرا وحافظا للسيرة النبوية وصحيحي البخاري ومسلم متنا وإسنادا، ودارسا للتفسير القرآني، حتى إنه كان يعرف في مدينتي معسكر ووهران بشيخ الجماعة مثل جده عبد القادر المشرفي.[9]

زاول الشيخ محمد بن عبد الله المشرفي مهنتي التدريس بمعسكر والقضاء المالكي بوهران في عهد الأتراك العثمانيين، ولما ابتليت الجزائر بالاحتلال الفرنسي وسقوط وهران في قبضته سنة 1831م، اختار الشيخ المشرفي طريق المقاومة فانضم إلى ثورة الأمير عبد القادر عقب مبايعة هذا الأخير سنة 1832م ليتولى حينها القضاء وعضوية مجلس الشورى ثم عينه الأمير عبد القادر مبعوثا دبلوماسيا له في مناسبات شتى، فكانت له عدة وفدات على السلطان المغربي عبد الرحمان بن هشام سنة 1252هـ/1837م، واكتسب جراء هذه البعثة الدبلوماسية مكانة مرموقة لدى السلطان حيث كان يحضر مجالسه. وقد عاد من مهمته في السنة نفسها.[10] وقد عاد الشيخ المكنى بـ "سقط" مرة أخرى إلى فاس مصحوبا بمكتبته التي كانت تحوي 1600 مجلد، وكذا أفراد أسرته بتاريخ 1262 هـ/1845–1846م.

توفي الشيخ الفقيه وهو في طريقه إلى مكناس ملبيا دعوة السلطان المولى عبد الرحمان للمشاركة في أعياد المولد النبوي الشريف، وكان ذلك بعد سنة 1270 هـ/1853–1854م ودفن خارج باب السبية، أحد أبواب مكناس.

6–العربي بن عبو الغريسي المشرفي: (ت: 1844م) هو من علماء القرن 13 هـ/19م هاجر بأهله من غريس إلى مدينة فاس وبقي بها إلى أن توفي سنة 1260هـ/1844–1845م. وذكر الكتاب بشأنه أنه كان عالما ومدرسا حامل لواء المختصر، والحافظ لشروحه ومتونه، درس الفروع الفقهية وتولى القضاء.

7– عبد الله بن البشير المشرفي المشهور بالسيد عب: (ت: بداية القرن 20م) يلقب بأبي محمد، وهو من علماء وجدة المغربية خلال القرن 13 هـ/19م، لكن أصله من معسكر، هاجر بدينه وأهله، رفقة والده الفقيه السيد البشير، في حدود الستينيات من القرن 19م، وقد اشتهر

ببراعته في علم العربية وفي حفظ المختصر وتميز بمثابرته وجده واجتهاده وذهنه الوقاد وفهمه الثاقب. وقد توفي بمدينة وجدة في بداية القرن 14 هـ/20م.

8–أبو حامد العربي بن علي المشرفي: (ت:1895م) هو الشيخ العلامة أبو حامد بن علي بن عبد القادر بن عبد الله بن محمد بن أحمد أبي جلال المشرفي الادريسي الحسني الراشدي الغريسي. ولد في بداية القرن 19م بالكرط وتعلم بها وأخذ عن الشيخ ابن عبد الله سقط المشرفي، والشيخ أحمد بن التهامي وغيرهم من علماء معسكر في زمانه، ثم انتقل إلى مستغانم ودرس على علمائها. وقد شارك في المقاومة الجزائرية في بدايتها مع والده الذي يظهر أنه كان من قادتها الكبار قبل مبايعة الأمير عبد القادر، وقام بإنشاء رباط حول وهران.

وبعد انتهاء مقاومة الأمير عبد القادر، رحل إلى فاس واستقر بها، واشتغل بتعليم الصبيان، القرآن الكريم، أو معلم من الطبقة الثانية حسب قوله بحجة أنه كان مصنفا عند الفاسيين ضمن حزب الغرباء، ولعل هذا هو سر عدم توليته أرفع المناصب العلمية.

زار الجزائر مرتين بعد هجرته وذلك أثناء طريقه إلى الحج، وكانت الزيارة الأولى سنة 1265هـ/1848–1849م والثانية سنة 1294هـ/1877–1878م.

اشتهر الشيخ العلامة باتساع معرفته وغزارة إنتاجه في علوم وفنون عدة، وورد عنه أنه كان صاحب علم ومحاضرة ورواية وشجاعة قلب، وكانت له جرأة على الولاة، حج بيت الله الحرام خلال سبعينيات القرن 19م، وله ما يقرب من الثلاثين مؤلفا، ذكر ها في آخر كتابه: ذخيرة الأواخر والأول، وهي في الأدب والرحلة والتصوف والنحو والتاريخ والحديث والطب وبعض قضايا العصر، كما كان شاعرا موفقا، له دواوين معظمها في مدح الملوك الذين عاصرهم وخاصة المولى حسن، إذ كان يرافق السلطان في جولاته عبر البلاد، مع فئة العلماء المقربين[11].

وينتسب أبو حامد المشرفي للطريقة الدرقاوية لذا نراه يتعاطف معها في مخطوطه الحسام المشرفي الآتي ذكره، كما أنه تبنى المذهب الأشعري حيث يظهر ذلك في اهتمامه بتخصيص ترجمة لأعلام الأشاعرة في المخطوط المذكور. وتوفي أبو حامد المشرفي سنة 1313هـ/1895م–1896م بمدينة فاس وبها دفن.[12]

9–الحاج محمد المشرفي (1255–1334هـ/1839–1916م): هو الحاج محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي الحسني الإدريسي الغريسي، عاش خلال القرن 19م، أصله من غريس

وانتقل مع والده إلى مدينة فاس في حدود 1260هـ/1844-1845م، وعمره لا يتعدى خمس سنوات. كان والده عالما فاضلا، توفي بمصر عند رجوعه مع ابنه من الحج سنة 1275هـ/1858-1859م.

كان الحاج محمد المشرفي عالما في الفقه والعربية والتاريخ وعلوم أخرى، كما كان شاعرا موفقا كثير الهجاء، وأخذ العلم بفاس على عدد من العلماء الأجلاء، مثل العلامة أبو حامد المشرفي، وأبو عيسى محمد المهدي ابن سودة...وقد ترك عدة مؤلفات منها:

-الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية. وقد حققه الباحث إدريس بوهليلة، ونشر بدار أبي رقراق للطباعة والنشر، بالرباط، سنة 2005. وهذا التأليف هو في الأصل شرح على نظم الأديب الغالي بن سليمان في الدولة العلوية.

-السهام الصائبة في الرد على الدعاوي الكاذبة. وفيه يرد على قاضي غليزان ومفتي الجزائر ابن الحفاف في مسألة ثبوت الهلال إذا لم ير بعد ثلاثين يوما.

-الدر المكنون بتعريف عن الشيخ محمد الكنون الادريسي.

-التوسل بالأنبياء والأولياء. وفيه يرد على من أنكر ذلك.

تولى الشيخ العلامة القضاء بقبيلة الحياينة بأحواز فاس، وتوفي سنة 1334هـ/1915-1916م ودفن بروضة العراقيين بالقباب.

10- مصطفى بن عبد الله المشرفي (1912-1959م): هو مصطفى بن عبد الله بن مصطفى بن عبد الله سقط، ولد بمدينة وجدة سنة 1912م، توفي والده وعمره لا يتعدى السنة الأولى، فكفله خاله الذي حرص على تعليمه في الكتاتيب القرآنية بوجدة.

وفي بداية الثلاثينيات من القرن 20م ارتحل إلى مدينة فاس لطلب العلم والالتحاق بجامعة القرويين، فمكث بها ما يقرب أربع سنوات.

اشتهر بين معاصريه بعمله الوطني الدائم ومقاومته المستمرة للاحتلال الفرنسي، بجميع الوسائل المتوفرة لديه، من تخطيط للعمل المسلح أو تجنيد مستمر في الميدان التربوي والتعليمي. وكان أول من استورد السلاح في أواخر الحرب العالمية الثانية إلى المقاومة لتتمكن الخلايا المناضلة من تنفيذ العمليات المسلحة، مما أدى به إلى المثول رفقة أصدقائه أمام المحكمة العسكرية بمكناس، ليعرف بعدها ولمرات عديدة سجون الاستعمار الفرنسي بوجدة وعين العقرب وعين مومن وأغبيلة وأغبالو أنكردوس. كما عرف الإبعاد والنفي إلى

الرباط ومراكش وغيرها، وكل هذه المحن لم تقلل من عزيمته ولم تمنعه من المضي في مسيرته الكفاحية، إلى أن استقل المغرب الأقصى عام 1956م.

أما مساره التربوي والتعليمي، فكان يتميز باهتمامه بالتعليم الحر، فاستطاع في بداية سنة 1945م أن يجعل من كُتاب صغير لتحفيظ القرآن، مدرسة حرة عصرية سماها "مدرسة زيري بن عطية" جمعت في فجر الاستقلال خمس ملحقات، تمكنت من تكوين عدد من التلاميذ والطلبة كانوا أول الأطر في بداية الاستقلال المغربي.

عين مصطفى المشرفي بين 1956–1959 بوزارة الداخلية، رئيسا لدائرة فجيج، وكان يدعو الوفود الصحراوية إلى تجديد البيعة بين يدي الملك محمد الخامس. وفي 06 أبريل 1959م توفي مصطفى المشرفي فجأة، وفقدت المغرب شخصية متعلمة غيورة من أصول جزائرية.

11– محمد محي الدين المشرفي (1914–2003م): ولد محمد محي الدين المشرفي بوجدة سنة 1914، وعرف اليتم وهو لا يزال طفلا، فالتحق بالكتاب لحفظ القرآن ثم دخل إحدى المدارس الأولى التي أنشأتها الحماية الفرنسية بوجدة، وبعد ذلك التحق بشعبة تكوين المعلمين بثانوية مولاي يوسف بالرباط، ثم مارس التعليم الابتدائي بمكناس وسلا والرباط وأسفي، وخلال هذه المدة تحصل على البكالوريا، ثم على الإجازة في الآداب وعلى دبلوم اللغة العربية من معهد الدراسات العليا سنة 1939م، وتم تعيينه أستاذا بالتعليم الثانوي بوجدة.

واعتبارا لكفاءته وحنكته التربوية لم يلبث أن أسندت إليه مهمة تفتيش أساتذة اللغة العربية سنة 1945م، بمدينة وجدة ولاحقا بمدينة فاس، وفي سنة 1947 أصدر رفقة زميليه المفتشين عبد المالك السليماني ومولاي العربي المسعودي كتابا بعنوان : "نصائح وإرشادات في التربية والتعليم لمدرسي اللغة العربية".

كان المفتش المشرفي يلقي محاضرات في التربية على المعلمين ويحثهم على الاطلاع على الكتب الواردة من الشرق للاستفادة منها، فتعرض بسبب ذلك إلى المضايقة من قبل المراقبة المدنية الاستعمارية، فمنعته من مزاولة عمله بفاس وتم نقله إلى وجدة سنة 1952م.

بعد حصول المغرب على استقلاله، أسندت له مسؤولية التعليم الابتدائي، فراح يحسن برامج التعليم ويعمل على تحديثها وكذا تكوين المعلمين وإعداد الكتب المدرسية التي أعد

الكثير منها بنفسه أو بالمساهمة مع غيره من المفتشين والأساتذة. ثم أسندت إليه المناصب التالية:

-مدير الشؤون الثقافية.

-مدير عام للتعليم والشؤون الإدارية.

-مكلف بالتفتيش العام للخزانة المركزية والخزانات التابعة لها.

-مدير المركز الوطني للتعريب.

-محافظ الخزانة العامة.

-كاتب عام لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

وكانت وفاته بتاريخ 01 محرم 1424هـ / 05 مارس 2003م.

ثانيا- المشرفيون والتأريخ: من خلال ما سلف ذكره حول علماء العائلة المشرفية ومثقفيها البارزين سواء بالجزائر أو المغرب الأقصى، نلاحظ أن هذه العائلة التي توارثت الفكر والثقافة والعلم أبا عن جد لقرون من العصر الوسيط إلى العصر المعاصر، اشتغلت أساسا بالتدريس والقضاء والتأليف، وما يلفت الانتباه أن أغلب هؤلاء الأعلام قد ألفوا كتبا في تخصصات متنوعة، منها التاريخ الذي حظي بنصيب أوفر.

وقد يتساءل المرء عن خصوصيات الكتابة التاريخية عند العلماء المشرفيين البارزين، بإنتاجهم الفكري والثقافي، ولعل الإجابة تتطلب أولا فحصا دقيقا لمخطوطاتهم التاريخية أو الاطلاع على مجهود الباحثين فيما يتعلق بتراث المشرفيين أو المشارفة، وعلى أساس ذلك، تبين لنا ما يلي:

* جاءت بعض المخطوطات التاريخية لبعض العلماء المشرفيين، في شكل كناشات أو دواوين، بحيث إذا تصفحت الكناش، فإنك تجد بين دفتيه مادة تاريخية متنوعة المواضيع، وتتخللها أشعار متنوعة، ورسائل، وأجوبة على رسائل، فالكناش- حسب اعتقادي- كان بمثابة مفكرة بتعبيرنا المعاصر. وفي المقابل نجد بعض المخطوطات التاريخية تعالج موضوعا معينا بالوصف والتحليل وهو ما نسميه بالمخطوطات الموضوعاتية.

* عالجت المخطوطات التاريخية لبعض علماء العائلة المشرفية، مواضيع في التاريخ العام مصحوبة بمواضيع تتعلق بتاريخ الجزائر خلال العهد العثماني خاصة الفترة الأخيرة التي شهدت حركتي درقاوة والتجانية، متبوعة بوقائع الاحتلال الفرنسي والمقاومة الشعبية بين

1830-1832م، ثم تطورات ثورة الأمير عبد القادر 1832-1847م. كما أفردت مخطوطات المشارفة، حيزا فسيحا لتاريخ المغرب الأقصى في عهد الأسرة العلوية ورحلات سلاطينها وسيرهم وأعمالهم.

* أدرج المؤرخون المشرفيون ضمن كتاباتهم التاريخية، الأمثال والحكم والأبيات الشعرية والقصص، وكانت لغة المخطوطات سهلة وعباراتها واضحة مع ألفاظ وتعابير عامية مثلهم مثل الآغا المزاري وأحمد بن المبارك القسنطيني، وابن العنتري، ومسلم بن عبد القادر وغيرهم من كتاب القرنين 18 و19م.

* أبدى المؤرخون المشرفيون من خلال مخطوطاتهم التاريخية، تفاعلهم مع قضايا عصرهم وإحساسهم القوي بما يعانيه قومهم من ويلات التفرقة والخيانة والتخلف والانحطاط، وفي المقابل دعوا إلى التحضر والاستعداد والتمسك بأسباب الرقي لفرض التحدي ومواجهة العدو الاستعماري.

وفيما يلي بعض المخطوطات التاريخية لبعض علماء العائلة المشرفية، التي تعتبر إضافات جديدة في حقل البحث التاريخي وتوفر مادة دسمة للباحثين في التاريخ الحديث والمعاصر للجزائر والمغرب الأقصى على السواء.

أ-الكناشات والدواوين التاريخية:

1-كناشة تاريخية، لصاحبها عبد القادر المشرفي.

وفيه أخبار عن الجزائر العثمانية في عهد محمد بكداش، محرر وهران سنة 1708م، وكذا سير وأخبار نخبة من أعلام الجزائر، وشرح لبعض الأبيات الشعرية.

2-كناشة، لأبي حامد المشرفي: ويحتوي هذا المخطوط على أشعار متنوعة وتقاييد نثرية يمكن استغلالها في البحث التاريخي مثل القضاء المالكي بالجزائر في العهد الفرنسي وتحديدا خلال القرن 19م وغيره من المواضيع، ويصل عدد أوراق المخطوط إلى 409. ومسطرته متنوعة وخطوطه مغربية متنوعة كذلك ومستحسنة على العموم.[13]

3-ديوان المشرفي لصاحبه أبي حامد المشرفي: وهو مخطوط يشتمل على أخبار ملوك المغرب وأحوال الجزائر وتاريخ زلزال 1267هـ وتاريخ وفاة السلطان محمود الثاني العثماني سنة 1255هـ ومدح الأمير الأمير محمد بن السلطان عبد الرحمان بن هشام والأمير سليمان. وتوجد نسخة منه بالخزانة العامة بالرباط رقم 204ك.

ب-المخطوطات التاريخية الموضوعاتية:

1-بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين من الأعراب كبني عامر، لصاحبه العلامة عبد القادر المشرفي.

وقد أتمه سنة 1178هـ/1764-1765م وهو محقق من قبل الأستاذ المرحوم محمد بن عبد الكريم، وفيه ذكر العلامة المشرفي موبقات المتعاونين من القبائل الجزائرية بالغرب الجزائري مع الاسبان، ثم تعرض بتفصيل لأصولهم وفصولهم وحكم الله فيهم، ولخص موضوع التأليف في هذه الجمل: "...إن هؤلاء الفرق الثمانية الضالة وهم كرشتل وشافع وحميان وغمرة وقيزة وأولاد عبد الله وأولاد علي والونازرة لما اجتمعوا عند الاسبانيين وصاروا على كلمة واحدة في الدفع والجلب، اشتد بهم عضد النصارى وقويت شوكتهم وكثر بأسهم على المسلمين." ثم حدد المشرفي عبد القادر، أشكال المعونة التي قدمها هؤلاء للاسبان والتي أوجزها في معونة اقتصادية وجبائية، ومساعدة استخباراتية تجسسية على المسلمين، ومعونة عسكرية توسعية والمشاركة في قتل المسلمين وأسرهم وسبي نسائهم وأطفالهم.

ثم يستطرد المشرفي ويقول على هذه الفرق: "انقسموا على ثلاثة فرق، ففرقة منهم لجأت لحصن العدو وصارت تقاتل معه وتدافع بجهدها عنه، والحكم في هذه الفرقة إباحة مالها ودم رجالها والبالغين من ذراريها لمن ظفر بهم من المسلمين...وأما الصغار من الأولاد فلا يقتلون ولا يكونون فيئا للمسلمين...وفرقة لجأت للمسلمين وصارت تقاتل معهم العدو، غير أنها في الخفية تعلمه بأحوال المسلمين وتأمره بالثبات وتواعده بالرجوع عنده إذا وجدت السبيل، والحكم فيها أنها فرقة الزنادقة يقتل كل من اطلع عليه منها، وإلا فأمره إلى الله سبحانه وتعالى. وفرقة منهم تابت لله تعالى وأنابت من موالاة العدو ومواصلاته وتركت الإعانة له ظاهرا وباطنا وندمت على ما صدر منها سابقا، والحكم فيها أنها واحدة من جماعة المسلمين..."[14]

2-الحسام المشرفي لقطع لسان الساب الجعرفي الناطق بخرافات الجعسوس السيء الظن الكنسوس، لمؤلفه أبي حامد المشرفي: وهو مخطوط يشتمل على مقدمة حول علم التاريخ عند العرب، وثلاثة فصول، الأول في القدح في ألكنسوس -الذي وصف العربي ابن الشريف الدرقاوي برأس الفتنة- بحيث يرد فيه ويتهجم على التجانيين متهما إياهم بأنهم مجتمع رقص وليس مجتمع طريقة صوفية، وفي المقابل ينتصر للدرقاويين ويتعاطف معهم ويقف موقف الخصم للعثمانيين بالجزائر، والمقطع الآتي يؤكد ما ذكرناه حيث يقول المشرفي : "وذلك لأنه

لما اشتدت شوكة الأتراك وما لقت الناس من كثرة الظلم والعياذ بالله... دعوا الله في سواد الليل أن ينجيهم من ذلك الويل فسلط الله عليهم بسبب الظلم...شخصا من هذه الطائفة الدرقاوية من الزاوية الغريسية الشرفاوية."[15] ويتبع ذلك بمعلومات مفيدة عن ظروف الاحتلال الفرنسي للجزائر ومقاومة السكان لذلك أو كما يسميهم أعراب واسطة المغرب، كما يتحدث عن معاناة السكان جراء الاحتلال من تهجير وجوع، ومما يذكره في هذا المجال: "فتمر على جماعة الصبيان، موتى، متعانقين، في الموضع الواحد ما يزيد على العشرة."ثم يستطرد ويفيدنا بحقائق عن تلك المقاومات التي عرفتها الجهة الغربية للجزائر.[16]

والفصل الثاني هو عبارة عن ترجمة للأشاعرة، والفصل الثالث والأخير عبارة عن ترجمة لسلطانين مغربيين، وتوجد نسختين منه الأولى رقم 1207 بالخزانة العامة بالرباط، وعدد صفحاته 207. والنسخة الثانية رقم 2276 ك.[17]

3–ذخيرة الأواخر والأول فيما ينتظم من أخبار الدول، لمؤلفه أبي حامد المشرفي: هو مخطوط في التاريخ العام من أيام سيدنا آدم عليه السلام وصولا إلى تاريخ 1299هـ/1881م، وضعه المؤلف تلبية لطلب أحد أقاربه وطلبته، أجاب فيه عن سؤال كان يشغله ويشغل بال المهاجرين الجزائريين بالمغرب الأقصى حول أوضاع الجزائر في أواخر العهد التركي وبداية الاحتلال الفرنسي، وكيف كانت معاملة الأتراك العثمانيين للجزائريين وأعمالهم بالجزائر؟ كما طلب منه أن يضع تاريخا للدولة العلوية التي تأوي عدد كبير من الأسر الجزائرية. ويتضمن المخطوط ستة أبواب هي:

* الباب الأول: في بدء الخلق وتكوين آدم.
* الباب الثاني: في أطوار الإنسان من أول خلقته إلى موته.
* الباب الثالث: في دولة آدم ومدة حياته، وكم بينه وبين كل رسول.
* الباب الرابع: في الدول التي ظهرت قبل الإسلام إلى دولة نبينا محمد.
* الباب الخامس: في دول الإسلام من دولة نبينا والخلفاء الأعلام إلى الدولة العثمانية، والوجود التركي بالجزائر، ومن لحق عليه المؤلف من ملوك الأتراك في حدود الأربعين من القرن 13هـ وبداية الاحتلال الفرنسي.
* الباب السادس: في الدولة العلوية بالمغرب الأقصى.[18]

وعليه يعتبر كتاب ذخيرة الأواخر من أهم المصادر التي تحدثت عن تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر وتحديدا خلال القرن 19م، إذ ترجم لعدد من العلماء، بعضهم غير معروفون مثل أحمد بن البشير المختاري، محمد بن أبي سيف البحيري، الطاهر بن حسن المختاري وغيرهم. كما تحدث فيه عن أهم القضايا التي كانت محل نقاش وجدل مثل الهجرة، العدل، الرحلات، والمسائل الفقهية. ولم يغفل الحديث عن ثورة درقاوة، وثورة التجانية، والاحتلال الفرنسي، ومبايعة الأمير عبد القادر ومقاومته للغزو الفرنسي، وتضمن الكتاب معلومات عن بناء مدينة الجزائر ودخول الأتراك إليها والعادات والتقاليد المحلية والتجارة والمرافق العامة بالمدينة والزراعة. ولم يخف أبو حامد المشرفي إعجابه بثورة درقاوة، كما لم ينكر اهتمام الأتراك العثمانيين بالعلماء رغم موقفه المناوئ لدولتهم. وتوجد نسخة منه بالخزانة العامة بالرباط رقم 2659، ونسخة مصورة بالمكتبة الوطنية الجزائرية.

4–طرس الأخبار بما جرى آخر الأربعين من القرن الثالث عشر للمسلمين مع الكفار في عتو الحاج عبد القادر وأهل دائرته الفجار. لصاحبه أبي حامد المشرفي: تناول فيه أحوال الجزائر في عهد الأمير عبد القادر، وما جرى فيه من الأحداث والمواقف، مثل تولية الأمير والأعمال التي قام بها والمعارك التي دارت بين الجزائريين وجيش الاحتلال الفرنسي قبل المبايعة. ويبدو فيه أنه كان ضد الأمير، ويتبنى وجهة نظر مخالفة لطريقة الأمير، وجل انتقاداته مبنية على عدم الاختيار الحسن للأعوان والحكام الذين ينوبون عنه. أما في شخصه أو سيرته فلا يوجد ما يدعو المشرفي إلى مناهضته.[19]

ويشتمل المخطوط على سبعة فصول وخاتمة:

* الفصل الأول: في سبب قيام هذا الجيش من الافرنج، وهو الفرنصيص دمره الله، وخروجه للجزائر من سيدي فرج.

* الفصل الثاني: في ذكر السنة التي خرج فيها للجزائر، وما وقع بينه وبين الأتراك من حروب، وفي كم دخل المدينة وافترقت للمسلمين الحروب.

* الفصل الثالث: ذكر دخوله وهران، ومن قاده لها حتى فرق بالتشتيت أهلها، وأظلم في مدينتهم الجو، وأزعجوا من كثرة ما لقوا...

* الفصل الرابع: في ذكر نفور المسلمين أهل غريس وبني عامر ومن والاهم، واتفاقهم على قتاله بالأمير رغبة في الجهاد.

* الفصل الخامس: ذكر مبايعة الحاج عبد القادر على الجهاد لأن يكون على الجيش أميرا...وفي عدة الوقائع التي وقعت بين المسلمين والكفار حول الجزائر ووهران ومن مات فيها من الأخبار.

* الفصل السادس: في سبب استيلاء الفرنصيص أذله الله وكسر شوكته على عمالة هذه الواسطة من تونس والقيروان إلى وجدة، وسبب تشتيت هذه العربان حاضرة وبادية في الأوطان.

* الفصل السابع: في كيفية من عاير أخاه المؤمن بالتنصر في الدعوى، وهو أسير حزين مفتون بهذه البلوى.[20]

* الخاتمة: تحدث عن الإمامة وكونها واجبة كطلب العلم وزيارة الكعبة، والشروط التي يجب توافرها في الإمام أو الخليفة، ويذيل المشرفي كتابه بقصيدة من نظمه في ذم من أبغضنا أو أبغض جميع المسلمين.[21]

وتوجد نسختين بالخزانة الملكية بالرباط، الأولى تحمل رقم 1476 وتقع في 60 ورقة. والثانية مبتورة الوسط، تحمل رقم 6533 وتقع في 96 ورقة. كما توجد نسخة واحدة بالخزانة العامة تحت رقم 496 ك، ونسخة بالمكتبة الوطنية الجزائرية.

5-عجيب الذاهب والجائي في فضيحة الغالي اللجائي، لأبي حامد المشرفي: ومن خلال هذا المخطوط ردّ المشرفي على الغالي بن محمد العمراني الحسني اللجائي، حيث كان يتنطع على الأمير عبد القادر، والمشرفي ينتصر له. ويبين لنا هذا المخطوط تغير موقف أبي حامد المشرفي من الأمير عبد القادر أي الانتقال من المعارضة إلى التأييد والدفاع، حيث اتضحت الصورة لديه، وأن الحقيقة التي كان عليه أن يدركها هي أن الأمير فعلا كان مجاهدا مدافعا عن دينه وشرفه وشرف بلاده، ولم يكن طالب جاه أو مال.[22]

6-ياقوتة النسب الوهاجة في التعريف بسيدي محمد بن علي مولاي مجاجة، لأبي حامد المشرفي: وفيه نسب الأدارسة بالمغرب والجزائر وليبيا وأصولهم وفروعهم والسيرة النبوية وترجمة للشيخ محمد بن علي المجاجي كما ترجم لبعض أعلام الجزائر وأخبار هامة عن الجزائر.

7-الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية، لصاحبه محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي: ويعتبر هذا المخطوط الذي حققه ونشره الأستاذ إدريس

بوهليلة من المغرب، من الكتب التي تؤرخ لملوك الدولة العلوية بالمغرب الأقصى، وقد قدمه المؤلف هدية للسلطان المولى الحسن في أواخر سنة 1310هـ/1893م، أثناء وجوده بالقصر السلطاني بمدينة فاس، فاستحسنه السلطان وأعجب به.

وقد قسم المشرفي كتابه إلى قسمين، الأول وهو الأصل، خصصه لشرح منظومة الغالي بن المكي بن سليمان المتوفي 1317هـ/1899م، والقسم الثاني، عبارة عن تكملة، ذيل بها المشرفي كتابه الحلل البهية سنة 1321هـ/1903م وأنهى فيها ترجمة السلطان المولى الحسن، وأضاف لها معلومات تاريخية مستفيضة عن عهد المولى عبد العزيز إلى حدود سنة 1902م.

والكتاب بقسميه (الشرح والتكملة)، أفاض فيه محمد المشرفي حيث أتى بمعلومات تاريخية فريدة، ووثائق نفيسة، وأفكار مستنيرة جريئة، واستطرادات تأويلية طريفة، وكل ذلك بإتباعه لمنهجية تاريخية صارمة، في تحليل وعرض تاريخ ملوك الدولة العلوية، بدءا بالمولى الشريف وأبنائه محمد، الرشيد، إسماعيل، عبد الله، محمد بن عبد الله، سليمان، عبد الرحمن، محمد بن عبد الرحمن، الحسن، وانتهاء بالمولى عبد العزيز، مسجلا أعمالهم ومنجزاتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية المدنية والعسكرية والدينية.

وقد قسم المحقق المخطوط إلى مقاصد، وجعل لكل مقصد عنوانا مناسبا، وبيان ذلك، كالآتي:

*خطبة الكتاب: وفيها تعرض المؤلف إلى دواعي التأليف.

* مقدمة: وكانت في التاريخ والمؤرخون، وقسمها المشرفي إلى مقصدين:

المقصد الأول: علم التاريخ وذكر بعض ما ألف فيه.

المقصد الثاني: التعريف بالناظم وقصيدته.

* شرح القصيدة: تركيز السلطة ومواجهة التهافت الأوربي.

المقصد الثالث: أفضلية الدولة العلوية.

المقصد الرابع: بداية تكوين الدولة العلوية.

المقصد الخامس: الدول المتعاقبة على المغرب قبل الدولة العلوية.

المقصد السادس: استكمال تكوين الدولة العلوية.

المقصد السابع: توطيد السلطة وتوحيد البلاد.

المقصد الثامن : إعادة توحيد البلاد.

المقصد التاسع: الانفتاح على الخارج.

المقصد العاشر: استتباب الأمن والمساعي الحميدة.

المقصد الحادي عشر: السياسة المرنة وبداية مواجهة الأطماع الفرنسية.

المقصد الثاني عشر: الاحتلال الاسباني لتطوان وعقد الصلح.

المقصد الثالث عشر: الإصلاح وازدياد الأطماع الأوربية.

* تذييل شرح القصيدة: ضعف السلطة والتغلغل الأوربي.

المقصد الرابع عشر: عودة إلى الأطماع الأوربية.

المقصد الخامس عشر: الاستبداد وتعميق سياسة الانفتاح.

المقصد السادس عشر: الاستيلاء الفرنسي على توات.

المقصد السابع عشر: التغييرات الحكومية.

المقصد الثامن عشر: تعدد السفارات إلى أوربا.

المقصد التاسع عشر: الموافقة على إجراء الإصلاحات الانجليزية.[23]

خاتمة: إن الهدف من هذا الموضوع هو تسليط الضوء على الأسر العلمية في الجزائر عبر مراحلها التاريخية وإبراز إسهاماتها في إثراء المعرفة في علوم وفنون عدة منها علم التاريخ من خلال الاطلاع على ما تركته من مخطوطات تاريخية سواء كانت في شكل كناشات أو دواوين أو موضوعات أو رحلات..لنخلص في نهاية المطاف إلى الأدوار المختلفة التي كانت تلعبها الأسر العلمية في تاريخ الجزائر وقضاياه الكبرى بصفتها –وقتذاك– نخبة مثقفة. ولعل الأسرة المشرفية جديرة باهتمام الباحثين لما تركته من مخطوطات، هي موزعة بين الخزائن الحكومية والخزائن الخاصة بالجزائر والمغرب الأقصى وغيرهما من البلدان، ما دامت المخطوطات قد عرفت هجرة صاحبت هجرة البشر.

الهوامش:

1– نقيب أشراف الجزائر: موظف ضمن نسيج الإدارة المحلية، مقره مدينة الجزائر، تختاره الحكومة التركية العثمانية من بين السكان الأصليين المعروفين بالمامهم بعلم النسب، وتتجلى أبرز صلاحياته في إثبات النسب الشريف لكل فرد أو أسرة تطلب أو تدعي ذلك، من خلال تحرير وتوقيع عقد إثبات النسب الشريف.

2– بوهليلة، إدريس. مقدمة الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية، لمحمد بن محمد بن مصطفى المشرفي، الطبعة الأولى، دار أبي رقراق للنشر والتوزيع، الرباط، 2005، الجزء الأول، ص 55.

3- بوسمغون قصر من قصور الصحراء غير بعيد عن واحات فجيج، اشتهر بارتباطه الوثيق بالمراكز الثقافية بفجيج والراشدية وتلمسان وسجلماسة.

4-وهليلة، إدريس. المرجع السابق، ص 55.

5- البوعبدلي، المهدي. مقدمة الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني. تأليف ابن سحنون الراشدي، منشورات وزارة التعليم الأصلي، قسنطينة، 1973. ص 33.

6-بوهليلة، إدريس. المرجع السابق، ص 56.

7- أبو راس الناصري، محمد. فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته. تحقيق: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص 91.

8– نويهض، عادل. معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر. الطبعة الثانية، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، 1400هـ/1980م، ص 303.

9– المرجع نفسه، ص 304.

10– بوهليلة، إدريس. المرجع السابق، ص ص 57–58.

11– نويهض، عادل. المرجع السابق، ص 304.

12– عبد المنعم القاسمي الحسني. "الأمير عبد القادر من خلال مخطوط نادر" مداخلة خاصة بالملتقى الدولي حول الأمير عبد القادر، الحامة، الجزائر العاصمة، ماي 2005، ص 04. منشور على الموقع الالكتروني:
.org/details/el-mecherfi.http://www.archive

13– الكتاني محمد ابراهيم، التادلي صالح. فهرس المخطوطات العربية المحفوظة في الخزانة العامة بالرباط، منشورات الخزانة العامة للكتب والوثائق، ط1، 1997، المجلد الخامس، ص 81.

14– البوعبدلي، المهدي. المرجع السابق، ص ص 31–33.

15– المشرفي، أبو حامد. الحسام المشرفي. الخزانة العامة بالرباط، رقم 2276ك، ورقة 196وجه.

16– المخطوط نفسه، ورقة 197.

17– ترمز الكاف (ك) إلى المكتبة الكتانية التي ألحقت في السنوات الأخيرة إلى رصيد المكتبة الوطنية المغربية بالرباط.

18– عبد المنعم القاسمي الحسني. المرجع السابق، ص 04.

19-عبد المنعم القاسمي. المرجع السابق، ص 05.

20- المشرفي، أبو حامد . طرس الأخبار بما جرى آخر الأربعين من القرن الثالث عشر للمسلمين مع الكفار. مخطوط رقم 1496، الخزانة الملكية، الرباط، ورقة01 ظ.

21– عنان محمد عبد الله، وآخرون. فهارس الخزانة الحسنية، مراجعة: أحمد شوقي، المطبعة الملكية، الرباط، 1421 هـ/ 2000م. ص ص 719–720.

22– عبد المنعم القاسمي، المقال السابق، ص ص 5–6.

23– بوهليلة، إدريس. المرجع السابق، ص 23.